الفصل الثالث

فى اصطناع المعروف وإغاثة الملهوف

□ قد أجرنا من أجرت يامعن ! :

سعى رجل من أهل الكوفة فى إفساد دولة المنصور[١]، فعلم به وجعل لمن دَلّه عليه مائة ألف درهم ، فأقام الرجل حِينًا مختفيًا حتى مَضّه[٢] الاختفاء ، ثم ظهر فى مدينة السلام[٣]، فبينما هو يمشى فى بعض الشوارع إذ رآه رجل من أهل الكوفة فعرفه فأخذ بِمَجَامع ثيابه ونادى : هذا طِلْبَةُ أمير المؤمنين .

فبينما الرجل على تلك الحالة وقد اجتمع عليه الناس إذ سمع وقع حوافر الخيل من ورائه ، فالتفت فإذا هو مَعْن[٥] بن زائدة ، فقال : ياأبا الوليد أنا فى جيرتك[٦] .

فوقف وقال للرجل الذى تعلق به : ما شأنه ؟ قال : هذا بُغْيَة أمير المؤمنين الذى أَهْدَرَ دَمه ، وجعل لمن دل عليه مائة ألف درهم ، فصاح وقال : دعه ثم قال معن : أَرْدِفْهُ ، ياغلام خلفى فَأَرْدَفَه خلفه وساق، فصرخ الرجل : أيُحَالُ بينى وبين طِلْبة أمير المؤمنين ؟!، ولم يزل مغتاظاً إلى أن أتى باب أمير المؤمنين فنادى بأعلى صوته : نصيحة لأمير المؤمنين ! فأمر المنصور بحضوره ، فدخل عليه فأخبره الخبر ، فأمر بإحضار معن ، فأتاه الرسل ، فدعا بنيه وعبيدَه وقال : لا تسلموا هذا الرجل ومنكم أحد يعيش ، ثم سار إلى المنصور ، فدخل وسلم فلم يرد عليه السلام ، وقال : يامعن أنت أخذت منى الرجل عَدُوًّنَا ؟ قال : نعم ، قال : أفتقول نعم أيضاً؟! واشتد ، فقال

---

(١) المنصور العباسى هو الخليفة الثانى خلف أخاه السفاح . (٢) مضّه : آلمه .

(٣) مدينة السلام : بغداد . (٤) طِلْبَةُ : مطلوب أمير المؤمنين وبغيته .

(٥) هو معن بن زائدة الشيبانى أمير وقائد أموى من أشهر أجواد العرب كان شجاعا فصيحاً أكرمه المنصور العباسى وولاه سجستان .

(٦) أستجير بك وأحتمى .

مَعْن : ياأمير المؤمنين بالأمس بعثتنى إلى اليمن فقتلتُ فى طاعتك فى يوم واحد عشرة آلاف نفس ، ولى مثله أيام كثيرة أما رأيتمونى أهلاً أن تجيروا لى رجلاً واحدًا استجار بى ، ودخل منزلى !! فسكن غضب المنصور وقال له : قد أجرنا من أجرت ياأبا الوليد ، قال معن : فإن رأى أمير المؤمنين أن يصلَه بصِلةٍ يعلم بها مَوْقِعَ الرضا عنه فإنَّ قَلْبَ الرجل قد انخلع من صدره خوفاً ! .

قال : قد أمرنا له بخمسين ألف درهم ، قال : ياأمير المؤمنين إن صلةَ الخلفاء على قدر جِنَايَاتِ الرّعية ، وإن ذنبَ الرجل عظيم فأجزل له العطية ، قال : قد أمرنا له بمائة ألف .

قال : عَجِّلْها فإن خيرَ البِرِّ أَعْجَلُه ، فأمر له بتعجيلها ، فأحضر معن الرجل ، وقال : خُذْ صِلَة أمير المؤمنين وقَبِّل يدَه وإياك ومخالفة الخلفاءِ فى أرضِ اللهِ ، قال : فأخذ الرجل المالَ واستغفر الله تعالى وذهب ! .

[النعمان بن المنذر واصطناع المعروف]

□ إنما تُستَحسَنُ الحُلّة إذا كانت فى يد التاجر ! :

قال أبو الفرج : حدثنى عمرو بن العلاء ، قال : جلس النعمان بن المنذر[1] وعليه حُلّةٌ مُرَصّعَةٌ بالدُرّ لم يُرَ مثلُها قبل ذلك اليوم ، وأذن للعرب فى الدخول عليه ، وكان فيهم « أوس بن حارثة » ، قال : فَجعَلت العرب تنظر إلى الحُلّةِ وكلُّ واحد منهم يقول لصاحبه : ما رأيتُ مثلَ هذه الحُلّة قط ! ولا سمعتُ أن أحدًا من الملوك قَدَرَ على مثلها ، قال : وأوس بن حارثة مُطْرِقٌ لا يَنْظُرُ إليها ، قال له النعمان : ما أرى كُلَّ من دخل علىّ إلّا استحسن هذه الحلة ، وتحدث مع صاحبه فى أمرها إلّا أنت ! – مع نقصان قدرها عندى – ما رأيتك استحسنتها ولا نظرتها ! .

قال أوس : أسعدَ اللهُ الملكَ إنما تُستحسن الحلّةُ إذا كانت فى يد التاجر ، وأما إذا كانت على الملك وأشرقَ فيها وجهُه ، فنظرى مقصورٌ عليه لا عليها ! .

فاسترجح عقلَه واستحسَن قولَه ، فلما عزموا على الانصراف قال لهم

---

(١) النعمان بن المنذر آخر ملوك اللخميين فى الحيرة ومن أشهر ملوكها مدحه النابغة الذبيانى أطلق عليه العرب أبا قابوس ، وقالوا : إنه صاحب يومى «البؤس والنعيم» .

النعمان . اجتمعوا إلىّ فى غدٍ فإنى مُلْبسٌ هذه الحُلّةَ لِسَيّدِ العرب منكم . فانصرف العربُ عنه وكلٌّ يزعُم أنه لابسٌ الحُلّةَ فى غدٍ ! .

فلما أصبحوا تزيّنوا بأفخرِ الملابس وتقَلّدُوا بأحسنِ السُّيوف ، وركبوا أجودَ الخيل ، ومَضَوْا إلى النعمان ، وتأخر عنه أوس بن حارثة ، فقال له أصحابه : مالَكَ لا تغدو مع الناس إلى مجلس الملك فلعلك تكون صاحب الحُلّةَ ؟! .

فقال أوس : إن كنتُ سَيّدَ قومى فما أنا سيد العرب عند نفسى ، وإن حضرتُ وَلم آخذها انصرفت منقوصًا ، وإن كنتُ المطلوبَ لَهَا فسيعرف مكانى فأمسكوا عنه .

ونظر الناسُ فى وجوهِ القومِ ، فلم يُرَ « أوس بن حارثة » فاستَدعى النعمان بعض خاصّتِه وقال : اذهب فاعرِفْ خبرَ أوس ، فمضى رسولُ النعمانِ ، واستخْبَر بعضَ أصحابه فأخبره بمقالته ، فعاد إلى النعمان فَأَخْبَرَه بتلك ، فبعث النعمان إليه رسولاً وقال : احضر ولك الأمان مما خفت عليه ، فحضر أوس بثيابه التى حضر بها بالأمس ، وكانت العرب قد استبشرت بتأخره خوفًا من أن يكون هو الذى يأخذ الحُلّة ، فلما حضر وأخذ مجلسه ، قال له النعمان : إنى لم أَرَكَ غيرتَ ثيابَك فى يومك ؛ فالبس هذه الحلة لتتجمل بها ، ثم خلعها وألبسها له ، فاشتد ذلك على العرب وحسدوه ، وقالوا : لا حيلةَ لنا فيها إلا أن يزجره الشعراء وإلا أن يهجوه بقبيحِ الفِعل ، فإنه لا يخفض فعلته إلَّا الشعر ، فجمعوا فيما بينهم خَمْسَمائة ناقة وأتَوْا بها إلى رجل يقال له : « جرول » ، وقالوا له : خُذْ هذه واهج لنا أوس بن حارثة ، وكان « جرول » يومئذ أشعر العرب وأقواهم هجاء ، فقال لهم : ياقوم كيف أهجو رجلاً جسيمًا[1] لا يُنْكر بَلاؤُه .. ، كريمًا لا ينقطع عطاؤه ، فَضُولاً[2] لا يُطْعن على رأيه ، شُجاعًا لا يُضام نزيلُه ، مُحسنًا لا أرى فى بيتى شيئاً إلَّا من فضله ، فسمع بذلك رجل يقال له : بشر بن أبى خازم وكان شاعرًا ، فرغب فى البُدْن ، فأخذ الخمسمائة ناقة وهجاه وذكر أمه « سُعْدَى » فسمع أوس بذلك فوجه فى طلبه ، فهرب وترك الإبل ، فأتوا بها إلى أوس بن حارثة فأخذها ، وشَدّ فى طلبه ، وجعل « بشر بن أبى خازم » يطوف فى أحياء

(١) جسيما : عظيم الجسم بدين .
(٢) فَضُولاً : متصفاً بالفضيلة

العرب يلتمس عزيزاً يُجيره على أوس ، وكل من قصده يقول : قد أجرتك إلَّا من أوس بن حارثة ؛ فإنى لا أقدر أن أُجير عليه ، وكان أوس قد أدلى عليه[1] العيون ، فرآه بعض من كان يرصده فقبض عليه ، وأتى به إلى أوس ، فلما مَثُلَ بين يديه قال له : ويلَك أتذكر أمى ، وليس فى عصرنا مثلها ؟!، قال : قد كان ذلك أيها الأمير !، فقال : والله لأقتلنك قِتْلةً تحيا بها سُعْدىٰ – يعنى أمه –، ثم دخل أوس إلى أمه سُعدى وقال : قد أتيتك بالشاعر الذى هجاك وقد آليتُ لأَقْتُلَنّه قِتْلةً تحيين بها ، قالت : يابنى أَوَخَيْر من ذلك ؟ قال : وماهو ؟ قالت : إنه لم يَجِدْ ناصرًا منك ولا مُجيراً عليك وإنا قوم لا نرى اصطناع المعروف خافياً ضائعاً ! فبحقى عليك إلاَّ أطلقته ، ورددت عليه إبله ، وأعطيته من مالك مثل ذلك ، ومن مالى مثله ، وأرجعه إلى أهله سالماً فإنهم أيِسُوا منه ! .

فخرج له أوس وقال : ماتقول إنى فاعل بك ! قال : تقتلنى لا محالة !، قال : أفتستحق ذلك ؟! فقال : نعم !، قال : إن سُعدى التى هجوتها قد أشارت بكذا وكذا ، وأمر بحل كتافه وقال له : انصرف إلى أهلك سالمًا وخذ ما أمرت لك ، فرفع بشر يده إلى السماء وقال : اللهم أنت الشاهد عَلَىّ لا أعود إلى مثلها إلاَّ أن يكون مدحًا فى أوس بن حارثة ، وله بعد ذلك فيه قصائد كثيرة[2].

□ جابر عثرات الكرام !:

وذكر أبو العباس بن الفرج بإسنادٍ ذكره قال : كان فى خلافة سليمان ابن عبد الملك رجل يقال له : « خزيمة بن بشر الأسدى » ، وكان مقيمًا بالرَّقة[3] وكان له مروءة ظاهرة ، وبرّ كثير بالإخوان وكرم مشهور ، فلم يزل على تلك الحالة حتى قعد به دهْره ، وأناخ عليه بكلكله ، وحَلّ عليه الفقر ، فواساه إخوانه قليلاً ثم مَلُّوه ، فلما لاح له تغيّرهم اختار لزومَ بيته ،

---

(١) أرسل خلفه الأرصاد يرصدون تحركاته .

(٢) أشار إلى هذه القصة فى اختصار ابن قتيبة فى الشعر والشعراء ، وتجدها مفصلة فى مقدمة ديوان بشر .

(٣) بأرض العراق على الفرات ، والرَّقة : كل أرض إلى جنب واد ينبسط الماء عليها أيام المد ، ثم ينحسر عنها وينضُب فتكون مكرمة للنبات .

وأغلق بابَه ، وانقطع عن الناس ، وكان « عكرمة الفياض » واليًا على الرَّقة من قِبَلِ « سُليمان بن عبد الملك » ، فبينما هو فى مجلسه وعنده جماعة من أصحابه إذ جرى ذكر « خزيمة بن بشر » ، فأعلموه أنه لزم بيته وأغلق بابه فقال : أو ما كان لخزيمة من يكافئه على مروءته ويسدّ ديونَه ، وأمسك عكرمةُ عن الحديث ، فلما خلا المجلس قام « عِكْرِمَة » إلى كيس وجعل فيه أربعة آلاف دينار ، ثم أتى بدابته فَأُسْرِجَت ، وخرج سِرًّا من أهله ، فركب ومعه غلام من غِلمانه يحمل المال حتى أتى دارَ « خُزَيمة » فأخذ الكيس ، ونزل عن الدابة من قَبْل أن يصل إلى باب « خُزيمة » ، وبعث الغلامَ إلى مكان آخر بالدابة ، وتقدم حتى وصل إلى باب « خزيمة » فقرع الباب ، فخرج « خُزَيمة » وفتح الباب فناوله عِكْرمة الكيس وهم بالانصراف فأمسك خزيمة بطرفه وقال له : من أنت ؟ قال : ماجئتك هذا الوقت وأريد أن يعرفَنى أحد ، فقال خزيمةُ : لابد من معرفتك ، قال : « **أنا جابر عثرات الكرام** » ، وتركه وانصرف ، فأخذ خزيمة الكيس ودخل إلى منزله وهو يظنه أحد جيرانه ...، فلما رجع عكرمة إلى المنزل وجد زَوْجَتَه على أشر حال لأنها غارت أن يكون خرج إلى غيرها ، أو جَارية اشتراها ، فقال لها : ياهذه قَرِّى عيناً فوالله ما خرجتُ لشىءٍ من ذلك ، إنما أردتُ أن أفعل شيئاً لا يعلمه إلَّا الله تعالى !، فلم تزل به إلى أن أعلمها بصورة الأمر ، قال : ثم إن خزيمة بن بشر أصلح شأنه واشترى ثياباً فاخرة ومَركوبًا ، وتجهز إلى « سليمان بن عبد الملك ، فلما دخل عليه قال له : ما أبطأك عنا ياخزيمة ؟ قال : سوء الحال ياأمير المؤمنين !، قال : فما منعك من النهوض إلينا ! قال : قلةُ ذاتِ اليد ، قال : فما أراك إلاّ فى أحسن صورة ، وأجمل هيئة ، قال : إن أمرى لعجيب ياأمير المؤمنين !، ثم قص عليه قصته من أولها إلى آخرها ، فاهتز سليمان طربًا وجعل يقول : جابر عثرات الكرام ، ويكررها ويقول : والله لو عرفتُه لأعنتُه على مروءته ! فلله دره ! ما أحسن فعله ! وأوفر عقله !، ثم دعا سليمان بفتاه فعقد الولايةَ لخزيمة على الرَّقَّة والجزيرة ، وهو العمل الذى بيد عكرمة ، وأمره أن يقبض على ماله ويحتاط عليه ويحاسبَه ، فخرج خزيمة يريد الرّقة ، فلما قرب إليها خرج عكرمة يتلقاه ، ودخل خزيمة الرَّقَّة فدخل فى دار الإمارة وأراد عكرمة الانصراف فمنعه خزيمة ووكل به من يحفظه ، وأمره بإحضار ماله

والمال الذى تحت يده ، وعمل الحسابَ فوجد عليه شيء كثير فبعث به إلى السجن ، فبقى ثلاثة أيام وهو لم يذكر له ما فعله معه ، ومضت زوجتُه وابنةُ عَمّه إلى خزيمة وهى تقول : بئس ما جازيت به « جابر عثرات الكرام » ياخزيمة !!.

فلما سمع ذلك خزيمة دهش وقال : واسوأتاه !!، وافَضيحتاه من الله تعالى ، ومن « جابر عثرات الكرام » ، ومن أمير المؤمنين ! .

وقام من وقته وأتى إلى السجن يمشى وهجم على « عِكْرمة » ، ورمى بنفسه عليه ، وجعل يقبل يديه ، ويعتذر إليه ، ويُقسم بالله إنه ما عرف ، وأخرجه ، ودخل به وأخذه إلى الحمام ، وأحضر إليه ما يحتاج إليه من قماش وطيب ، واستبشر أهل المدينة غاية الاستبشار ، وأخذه وخرج من يومه راكبيْن إلى « سليمان بن عبد الملك » ، فلما استأذن عليه الحاجب فزع سليمان من ذلك وقال : عامل الرَّقّة والجزيرة يُقْدِمُ علينا من غير إذن ، فلما دخل قال : ما أقدمك علينا ياخزيمة ؟! قال : ياأمير المؤمنين ظفرْتُ بجابر عثرات الكرام قال : وعرفته ؟ قال : نعم ، قال : من هو ؟ قال : عِكْرِمَةُ الفياض ، قال : لا حول ولا قوة إلَّا بالله العلى العظيم ، بئس ماجَزَيْناه به عن مروءته ، ثم أذن له ، فدخل فقال له سليمان : بئس ما جازيناك به عن كريم فعلك ، وعظيم مروءتك ياعكرمة ، وبئس مافعل خزيمة ، قال عكرمة : هو معذور ياأمير المؤمنين إذ لم يعلم ! ونصيحة أمير المؤمنين أحب إليه .

فقال سليمان : إن اصطناع المعروف لا يكاد يَخْفَى ولا يضيع ، وأمر لعكرمة بمال جزيل ، وسامحه مما كان أوجبه عليه الخروج منه ، وعقد لهما الولاية على الرقة والجزيرة وأضاف إليهما من الأعمال إقليمًا كبيرًا .

□ أكرم رجل رأيته :

وحدث الحسن بن الخضر ، قال : لما آلت الخلافة إلى بنى العباس ، اختفت رجال من بنى أمية ، وكان فى جملة من اختفى « إبراهيم بن سليمان ابن عبد الملك » ، ولم يزل مختفياً إلى أن أخذ له داود أمانًا من أبى العباس السَّفاح ، وكان إبراهيم رجلاً أديباً بليغاً حَسنَ المحاضرة ، فحَظِىَ عند أمير المؤمنين السفاح ، فقال له يومًا : لقد مكثت زمانًا طويلاً مختفياً فحدثنى

بأعجبِ ما رأيت فى اختفائك ، فإنها أيام تكدير كانت !، قال : ياأمير المؤمنين وهل تسمع بأعجبَ من حديثى ، لقد كنت مختفياً فى منزل أنظر إلى البطحاء ، فبينما أنا على ذلك إذا أنا بأعلامٍ سُود خرجَت من الكوفة تريد البَصرة ، فوقع فى ذهنى أنها تطلبنى فخرجت متنكراً ، فوالله ما أعرف أين أتوجه ولا إلى أين أذهب !! .

فأتيت الكوفة من غير طريق معروفة وأنا لا أعرف بها أحداً ، فبقيت متحيراً ، فإذا أنا بباب كبير فى رحَبَة متسعة ، فدخلت تلك الرحبة ووقفت قريبًا من الباب ، وإذا رجل حسن الهيئة وهو راكب فرسًا ومعه جماعة من أصحابه وغلمانه ، فدخل الرحبة فوجدنى واقفاً مرتابًا ، فقال لى : ألك حاجة ؟ قلت : غريب خائف من القتل ، قال : ادخل ، فدخلت إلى حجرة فى داره وقال : هذه لك ، ثم هيّأ لى ما كنت أحتاج إليه من فرش وآنية ولباس وطعام ، فأقمتُ عنده مدة والله ياأمير المؤمنين ما سألنى قط : من أنا ؟ ولا ممن أخاف ؟ وهو فى أثناء ذلك يركب فى كل يوم ويعود مُتْعَبًا متأسّفًا ، كأنه يطلب شيئاً لم يجده ! .

فقلت له يوماً : أراك تركب كل يوم ، وتأتى مُتْعبًا متأسفاً كأنك تطلب شيئاً فاتك ؟! فقال : إن « إبراهيم بن سليمان بن عبد الملك » قتل أبى وقد بلغنى أنه مختفٍ وأنا أطلبه لعلى أجده ؛ فآخذ بثأرى منه بسيفى هذا ، فتعجبتُ ياأمير المؤمنين من هربى وشؤم بختى الذى ساقنى إلى منزل رجل يُريدُ قتلى ، ويطلب ثأرَه منى !، فكرهت – والله – الحياةَ ياأمير المؤمنين ، واستعجلت الموتَ لما أنا فيه من الشِّدّة ، فسألت الرجل عن اسم أبيه وعن سبب قتله ، فعرفت الخبر وهو صحيح ! .

فقلت : ياهذا قد وجب علىَّ حقُّك ومن حقِّك علىّ أن أدلَّك على قاتل أبيك وأقرب لك الخُطوة ! .

قال : أتعلم أين هو ؟ قلت : نعم ، قال : أين أجده ؟ قلت : هو أنا !؛ فخُذْ بثأر أبيك ، فقال : أظنك أمضَّك[1] الاختفاء وكرهت الحياة !، قلت : والله أنا قتلته يوم كذا وكذا ، فلما علم صدق تغيَّر لونهُ واضطرب ، واحمّرت عيناه ، ورفعَ رأسَه وقال : أما أبى فقد يلقاك فى يوم القيامة يحاكمك عند

(١) أمَضّك : آلمك وأوجعك .

من لا تخفى عليه خافية ، وأما أنا فغير مُخْتَفِرٍ[1] ذمتى ولا مُضَيِّعٍ نزيلى ، ولكن اخرج عنى فإنى لا آمن عليك بعد اليوم ، ثم وثبَ ياأمير المؤمنين إلى صندوق أخرج صرة فيها خمسمائة دينار فقال : خذ هذه واستعن بها على اختفائك ، فكرهت أخذها ، وخرجت من عنده وهو أكرم رجل رأيته ياأمير المؤمنين ، قال : فبقى السَّفَّاحُ يهتزُّ طربًا ويتعجب ! .

□ مكرمة مؤرخة لأحمد بن داود :

وأخبرنى على بن عيسى ، قال : حدثنى عبيد الله بن سلمان ، قال : كنت وأبو العباس أحمد بن الخصيب مع خلق كثير من العمال والكُتاب وأصحاب الدواوين مع محمد بن عبد الملك الزيات ، وكان وزيراً للواثق بالله ، وكان ابن الزيات يطالبنا ببقايا من المال ومحاسبات ونحن فى أعظم ما يكون من المصادرات والشدة ! .

قال : فمرض الواثق بالله واشتد مرضُه وحُجب ستة أيام عن الناس ، فدخل عليه أحمد بن داود يعوده وكان قاضى القضاة ، فقال له الواثق بالله ياأبا عبد الله ذهبت منى الدنيا والآخرة ، وقد أيقنت بالموت فهل عندك من خير تدلنى عليه ؟ .

فقال له أحمد : ياأمير المؤمنين إن وزيَرك ابن الزيات غشك فى جماعة من الكُتاب وأصحاب الدواوين ، وقد ملأ بهم الحُبُوس[2]، وأنكاهم بالمصادرة ، و لم يحصل ياأمير المؤمنين منهم على طائل ، وهم خلق كثير وخلفهم ألف يَد تُرفَع إلى الله تعالى بالدعاء على أمير المؤمنين ، فيأمر أمير المؤمنين بإطلاقهم لترفع تلك الأيدى بالدعاء لأمير المؤمنين ، فلعل الله سبحانه وتعالى أن يهبَ لك العافية ؛ فإن أمير المؤمنين محتاج فى هذا الوقت إلى أن تَقِلّ خصومته عند الله تعالى .

فقال الواثق بالله : والله إن هذا لَنِعْمَ الرأى وَقّعْ لهم ياأبا عبد الله بإطلاقهم وفَكّ قيودهم ، قال أحمد : ياأمير المؤمنين إن رأى خطى الوزير عاند وتغافل ، ولجّ عليهم ! ولكن يغنم أمير المؤمنين الأجر والثواب إذا تحمل المضض على نفسه ووقع لهم بخطه ، ففعل الواثق ما أشار إليه أحمد ووقع لهم بخطه وهو

---

(١) لن أنقض عهدى فأغدر بك . (٢) الحبوس جمع حَبْس وهو السجن .

يطلب إلى ابن الزيات أن يطلقهم ، وكل من فى السجن بغير مراجعة ولا مراودة ، ودفع التوقيع لرجل من خاصته وسير معه جماعة من غلمانه وأمرهم بالمضى إلى ابن الزيات ويأخذه بامتثال الأمر عاجلاً ويمنعه من الحضور إلى الواثق بالله قبل إطلاقهم .

وتوجهوا بالتوقيع إلى ابن الزيات فوجدوه راكباً يريد دار الواثق بالله فمنعوه وأمسكوا ببغلته فارتاع لذلك وظن أنه لحادثة قد وقعت به ، فنزل عن بغلته وجلس ، وقال : من تحدث فى أمرهم مع أمير المؤمنين ؟ قالوا : أحمد قاضى القضاة ، قال : فإذا أطلقت هؤلاء من أين أجمع الأموال للأجناد ؟! انتظروا حتى أشاور أمير المؤمنين ؟، قالوا : لا سبيل إلى ذلك ، ثم إنهم لم يدعوه حتى أطلق الجميع .

فلما دخل علينا الحاجب السجن أَيِسْنا من أنفسنا فقال : البشارة ! إن أمير المؤمنين أمر بإطلاقكم ، وعرفنا السبب وما فعل أحمد بن أبى داود القاضى معنا ، فخرجنا من السجن ووقفنا لأحمد فى الطريق التى يمر فيها ، فحين رأيناه دعونا له وشكرناه ، فكره ذلك منا ، وأراد أن ينزل عن فرسه فمنعناه ، وجعل يخبرنا بخبره ونحن ندعو له ، وهو يستصغر فعله ويقول : هذا بعض ما يجب من حقوقكم ، وستعلمون ما أفعله وقت عودتى إلى أمير المؤمنين إن شاء الله تعالى ، ثم رجع إلى الواثق بالله عشية النهار فوجده قد خف من مرضه وأكل الخبز ، فلما رآه الواثق بالله قال : هذا ببركة رأيك ياأبا عبد الله ! .

فقال أحمد : ياأمير المؤمنين ، أمَا تعلم أن الأيدى التى كانت تدعو عليك صارت تدعو لك ، ويدعو لك خلق كثير من رعيتك بسبب إطلاقهم ، ولكنهم قد صاروا إلى دور خراب ، وأحوال قبيحة لا فرش فيها ولا كسوة ولا دواب ،وأمير المؤمنين رغب أن يستكمل الأجر ،ويستديمَ نعمة الله تعالى عليه ، فيكمل نعمته عليهم قال : بماذا ؟ قال : بالذى فى خزائنك من آثارهم ، وفى اصطبلاتك من دوابهم فإن أمرت برد ذلك عليهم ، وتُفرج عن ضياعهم ليعيشوا ، وتقوى العافية ويتضاعف الدعاء ، فَوقّع لهم بذلك ، قال : فأخذنا جميع ما كان أخذ منا ، ومات الواثق بالله . بعد ذلك بثلاثة أيام ، وبقيت هذه المكرمة مؤرخة لأحمد بن أبى داود – رحمه الله تعالى –

□ لماذا سكت ؟! :

ودخل رجل على « سالم بن قتيبة الباهلى » فسأله عن حاجةٍ ، فوضع الرجل نعل سيفه[1] على إصبع « سالم بن قتيبة » واتكأ على سيفه ، ولم يزل يكلمه فى حاجته إلى أن رضّ[2] إصبع سالم فأدماه وسالم صابر ، فلما عاين الناسُ ذلك منه وفَرَغَ الرجلُ من كلامه ، وقضى حاجته ، وخرج من عنده ، جعل سالم يمسح الدم من أصبعه بمنديل وشده ، فقيل له : لم لا رفعت سيفه عن رجلك بيدك قال : خِفْتُ أن أفعل ذلك فيخجل منى فينسى حاجته أو شيئًا منها ! .

□ هكذا يكون شكر الله !! :

وحدث أبو موسى الفضل عن أبيه ، قال : سمعت « زينب بنت سليمان ابن على بن عبد الله بن العباس » ، قالت : كنتُ عند « الخَيْزُرَان » جارية المهدى وعادتها إذا كنت عندها تجلس فى جهة الباب وأجلس أنا بإزائها فى الصدر فى مجلس كان المهدى يجلس فيه وهو يقصدنا فى كل وقتٍ ، فيجلس عندنا فى بعض الأوقات ساعة ، ثم ينهض ، فبينما نحن كذلك إذ دخلت علينا جارية من جوارى الخَيْزُران اللاتى يحجبننا ، فقالت : – أعز الله السيدة – إن بالباب امرأة ذاتَ حسنٍ وجمال وخِلقة حسنة ، وهى على غاية فى سُوء الحال تستأذن عليك ، فسألتها عن اسمها فامتنعت من ذلك ، قالت زينب : فأشارت الخَيْزُران إلىّ وقالت : ما تَرَيْن ؟ فقلت : ما يضر من دخولها شيء ، فلابد من فائدة ، أو جواب ، فدخلت امرأة أجمل ما يكون من النساء وأكملهن ، فوقفت إلى جانب الباب وسَلَّمت وقالت : أنا « مُزْنَة بنت مرْوان ابن عبد الملك بن محمد الأموى » ، فقالت زينب : – وكنت متكئة – فقمت جالسة وقلت : مزنة – قاتلك الله ولا حياك ، ولا رعاك ، ولا سَلّم عليك ، والحمد لله الذى أزال النّعمة عنك ، وهتك سترك ، وأهانك بين الناس ، أتذكرين ياعدوةَ اللهِ حين أتاك نِسَاءُ بنى العباس يسألنك أن تكلمى أباك فى

---

(١) نعل السيف : حديدة فى أسفل جفنه ، والجفن : الغِمْد ، والغمد . غلاف السيف .
(٢) رضّ أصبع سالم أصابه بكسر ونحوه .

الإذن فى دفن « إبراهيم بن محمد بن موسى[1] » فوثبت عليهن وأسمعتهن أخشنَ الكلام ، وأغلظَ القول ، وأُخْرِجْن على الحالة التى علمتيها .

قالت زينب : فلما سمعت كلامى ضحكت ، فوالله ما أنسى حُسْنَ ثغرها ، وعلوَّ صوتها بالقهقهة ، ثم قالت : أى بنيةَ عَمِّى ؛ أى شىء أعجبك من حسن صنيع الله حتى أردت أن تتساوى بى ، والله لقد فعلت بأهلك ما قد ذكرتِ ، ولكن كان حقك على الله أن يسلمنى ذليلةً جائعةً عُريانةً شَعِثَة[2] خاضعة .

أفكان هذا شكرك لله على ما أولاك فىّ ؟! .

ثم قالت : سلام عليكم وولت خارجة !! .

قالت زينب فالتفتُّ إلى الخيزران فإذا هى تبكى !؛ ونادت الخيزران : يامُزْنَة ؛ دخلتِ بإذنى ولا تخرجى إلَّا بإذنى ، وصاحت بحجابها ، ردوها ، فرجعت وقالت : ما ساقنى إليك إلَّا الضرر والجهد وسوء الحال .

فنهضت الخيزران فعانقتها فقالت : مافىّ لذلك موضع للحال الذى أنا عليه ، فقالت الخَيْزُران لجواريها : عليكم بالحمام بسرعة ، فذهبوا بها للوقت إلى الحمام ، وأمرت بعض جواريها بخدمتها ، ولم يبرحوا بها حتى وافتها الخِلع[3] المَذّهبة والطِّيب ، فقامت الخيزران واعتنقتها وأجلستها المجلس الذى يجلس فيه أمير المؤمنين المهدى ، وقدمت إليها الموائد ، فجعلت تأكل وتُلْقِمُها إلى أن اكتفت فغسلت يديها .

فقالت لها الخيزران . قومى اختارى لك مقصورة من مقاصيرى فاسكنى عندى ولا نفترق حتى يفرق بيننا الموت ، فقامت وطافت واختارت أوسعها وأترفها ، فحول إليها جميع ما تحتاج إليه من الفرش والكساوَى والحرير والرقيق[4] ، ثم تركتاها وخرجتا من عندها ، فقالت الخيزران : هذه امرأة قد مَسَّها من الضُّر مالا مزيد عليه ولا يغسل مافى قلبها إلاّ المال ؛ احملوا إليها

---

(١) هو إبراهيم الإمام ابن محمد لقب بالإمام أخو الخليفتين : السفاح والمنصور ، بدأ دعوته للبيت العباسى سنة ٧٤٣ م وكان يعيش فى الحميمة جنوبى البحر الميت عند نشوب الثورة على الأمويين ، فقبض عليه مروان الثانى وجاء به إلى حران حيث مات .

(٢) شعثة : متسخة الشعر والبدن

(٣) الخِلع : جمع خلعة وهى الثياب .

(٤) الرقيق : العبيد .

خمسمائة ألف درهم ،فحملت إليها لوقتها ، ودخل المهدى إليها فى آخر الأمر ، فقال : ما بالكم ؟ فنهضت إليه زينب وأعلمته بجميع ما جرى وما قالت لها حين دخلت عليها ، فغضب غضبًا شديدًا ، وقال : ما هذا سجودك لله تعالى على ما أنعم عليك !، والله لولا لك علىّ حرمة لحلفت أنى ما أكلمك أبدًا ، قالت : ياأميرَ المؤمنين قد طاب قلبك !، واعتذرت إليها وفعلت معها الخيزران كذا وكذا ، فُسرّ بذلك وقال : احملوا إليها من عندى مائة ألف درهم ، وقال لخادم كان على رأسه : بَلّغْها منى السلام وقل لها : إننى ما سررت بشىء منذ دهرى كسرورى اليوم بُمقَامِك[1] عندنا فلا تدَعى فى نفسِك حاجة إلاّ ذكرتيها لنا ولولا أنى أكره أن أَحْشِمَك[2] لسرت إليك مُسَلِّمًا عليكِ وقاضيًا بحقك ، فمضى الخادم بالرسالة ، فجاءت إلى المهدى وسلمت عليه ، وقالت : ما على أمير المؤمنين من حشمة[3] فإننى عُدْتُ من بعض جواريه ، فقال : لا والله بل أعزّ من ولدى ، ولم تزل عند الخيزران حتى ماتت ! .

[حِلم المنصور]

□ نحن أهل بيت لا نقْبَلُ على اصطناع المعروف مكافأة !! :

ولما حج المنصور أمير المؤمنين عُرِض عليه جوهرٌ نفيس له قيمة عظيمة للبيع فعرفه وقال : هذا كان « لهشام بن عبد الملك بن مَرْوان » فانتقل إلى ابنه « محمد بن هشام » ومابقى من بنى أمية غيرُه ، ولابد لى منه ! .

ثم التفت إلى حاجبه الربيع وقال : إذا كان اجتماع غداً ، وصليتُ بالناس فى المسجد الحرام ، وحصل الناس كلهم أغلق الأبواب كلها ، ووكّل بها جماعة من الثقات ، وافتح باباً واحدًا ، وقِف عليه ولا يخرج أحد حتى تعرفه ، فإذا ظفرت بمحمد بن هشام فأْتنى به ، فلما كان من الغد فعل الربيع ما أمره به المنصور ، وكان « محمد بن هشام » فى المسجد فعرف أنه المطلوب وأيقن أنه مأخوذٌ مقتولٌ ، فتحير وارتاب واضطرب ، فبينما هو على تلك الحالة إذْ أقبل « محمد بن زيد بن على بن الحُسين » فزاد خوفُه ، وطار عقلُه ، وتحقق

---

(١) بمقامك : بإقامتك عندنا ومعنا .

(٢) أحْشِمَك : أسبب لك انقباضاً واستحياء وخجلا . (٣) حشمة : حياء .

الموتَ ، فقال له : لا تجزع فَلسْتَ قاتلَ أبى ، ولا جَدّى ، وليس عليك ثأر ، وأنا أجتهد فى خلاصك إن شاء الله تعالى .

ولكن تعذرُنى فيما أنا صانع بك من مكروه ، وقبيح خطاب ، ويكون سببَ خلاصك ، فقال له : افعل ماشئت ، فطرحَ رداءَه على وجهه وغطّى به وجْهَه وجذَبه وسَحَبه إلى أن قرب من « الربيع حاجب المنصور » وهو على الباب فلما وقعت عين الربيع عليهما لطَمه لطَماتٍ فى رأسه ، وجاء به إلى الربيع وقال : ياأبا الفضل إن هذا الخبيث جَمّالٌ من أهل الكوفة أكرانى [1] جمالاً له لبعض أهل خُراسان ولى عليه شهود ، وأريد منك من يوصله معى إلى القاضى ويمسك جِماله عن الذهاب مع الخُراسانى ، فعَيّن الربيع عليه اثنين وقال : لا تفارقاه إلى القاضى ، ومحمد بن زيد قابض على الرداء ، وقد استتر وجهه به ، فخرجوا جميعًا من المسجد ، فلما بعدوا عن الربيع قال له محمد : اذهب إلى حال سبيلك ، فقبّل محمد بن هشام يده ورأسه ، وقال : الله أعلم حيث يجعل رسالته !، ثم أخرج له جواهر قيمتها عظيمة . وقال : لله تعالى يابن بنت رسول الله – ﷺ – شرفنى بقبول هذا ، فقال له : اذهب بمتاعك فنحن أهل بيت لا نَقْبَل على اصطناع المعروف مكافأة .

واحترز على نفسك من هذا الرجل إلى أن يخرج فإنه مُجَدٌّ فى طلبك ! .

[حلم المأمون !]

□ إن المضطر يركب الصعب ! :

وذُكِرَ عن المأمون أنه قال يومًا ليحيى بن أكثم : قم بنا نخرج إلى الرَّقة فخرجا إلى الصخرة ، وإذا برجل قد خرج من بين القصب وفى يده قصبة يحركها فى وجه المأمون ، وصاح فنفرت دابته فسقط إلى الأرض ، وقال : والله لأقتلنه ، فقال : ياأمير المؤمنين إن المضطر يركب الصعب من الأمر ، وهو عالم بركوبه ، ولو أحْسَنَتِ الأيامُ مطالبتك ، ولَأن تلقى الله حانثًا خيرٌ من أن تلقاه قاتلاً ، فقال المأمون : كيف قلت ؟ أعد علىّ .

---

(١) أكرانى : أجر لى .

فأعاد عليه مقالته ، فالتفت إلى يحيى بن أكثم وقال : أما رأيت كيف يخاطبني ؟ المرء بأصغريه : بلسانه وقلبه ، ثم قال : هات قصتَك فوالله ما أوقِع فيها إلاَّ وأنا قائم فوقع فيها ، ثم ركب ، ثم قال :

إذا لم يكن إلاَّ على الشَّرّ مَرْكب فلا عذْر للمضطرِّ عند ركوبها !

[يحيى بن خالد والرشيد]

□ والله لأن تزول النعمة عني أحب إلي من أن أزيلها عن غيري !! :

قال : لما أحس « يحيى بن خالد » بالتغير من أمير المؤمنين الرشيد استشار صديقاً له في أمره وقال : إن أمير المؤمنين قد أحب جمعَ المال ، وقد كثرت أولاده ، وهو يحب أن يتخذَ لهم الضِّياع والرِّباع والعَقَار[1]، وقد كثرت علينا الحَسَدة ! .

فقال له الرجل : أشير عليك أن تنظر إلى ما في يد البرامكة من ضِياعٍ وعَقارٍ وأموال ، فتجعل ذلك كله لأولاد الأمير ، فإن أنت فعلت ذلك ازدَدْتَ عنده منزلةً وأحَبّك ! .

قال يحيى : والله لَأَنْ تزولَ النّعمةُ عني أحب إليَّ مِنْ أَنْ أُزيلها عن غيري !.

[يحيى بن خالد وطالب حاجة !]

□ إن حاجتك قد قضيت ! :

قال : ومشى رجل في ركاب يحيى بن خالد وطلب منه حاجة ، فقال له : ياهذا إنَّ حاجَتك قد قُضِيتْ فارجع !، والله ما وقَع غبارُ مَوْكبي على لحيةِ رجلٍ إلاَ وجب له عليَّ حق لا أقدرُ أن أكافئَه عليه ! ولو أعطيته ملء الأرض ذهبًا !! .

---

(١) الضِّياع : جمع ضيعة وهي الأرض المغِلّة . والرِّباع جمع ربع وهو الموضع ينزل فيه زمن الربيع والمنزل والحي . والعقار : كل ملك ثابت له أصل كالأرض والدار .

□ إنى بكُلٍّ سخىّ رفيق ! :

وحدث أبو القاسم بن المعتمر عن ابن معتوق الحمصى عن أبيه قال : كنت عند الحكم بن عبد المطلب بن عبد الله بن عبد المطلب بن حنطب وهو فى المساق[1] فقلت له : اللهم هَوّن عليه فإنه كان وكان !، وذكرت ما كان له من اصطناع المعروف ، ففتح عينيه وقال : من المتكلم ؟ قلت : أنا ، قال : إن مَلَكَ الموت يقول لك : إنى بكل سخى رفيقٌ ، ثم احمر وجهُه وضَحك ومات !، فوالله كأنه سراج انطفأ .

□ مرحبا بأقرب قريب خطب ! :

وروى عن عنبسة بن أبى سفيان أنه قال : زيّنَنى أبى وأرسلنى إلى عمى عُتبة أخطب ابنته ، فأتيته فأقعدنى فى حِجره ، وقال : مرحبًا بأقرب قريب خطب ، وأحبِّ حبيب ورد ، لا أستطيع له رَدًّا ، ولا أجد من تَشَفُّعِه بُدًّا ، يابنى قد زوجتكها وأنت أعز علىّ منها ، وهى ألصق بقلبى منك ؛ فأكرمها يعذبُ على لسانى ذكرُك ، ولا تُهِنْها فيصغر عندى قدرُك ، وقد قرّبتك مع قرابتك فلا تُباعِد قلبى من صِلَتِك !.

[من أفضل العرب !]

□ يافضلُ .. يافضلُ !! :

وذُكِرَ عن الفضل بن يحيى بن خالد أنه ركب فى حَشَمِه بموكبه إلى الصيد حين علا النهار ، ثم أمر فَضُرِبَت له المضارب ، وأمر بالطعام فَقُدّم بين يديه ، فبينما هو يأكل وإذا هو بأعرابى على ناقة قد أشرف ، فلما نظر إلى تلك المضارب والجيش[2] والجنائب والغلمان ما شك أنه هارون الرشيد ، فنزل عن ناقته وعقلها ، ثم دنا وقال : السلام عليك ياأمير المؤمنين ورحمة الله وبركاته ! .

---

(١) المساق . المصير والمرجع . والمراد : الاحتضار .

(٢) المضارب : المِضرب والمضارب : الفسطاط العظيم ، والخيمة الكبيرة . الجنيبة : الدابة تقاد ويقال : فلان تقاد الجنائب بين يديه إذا كان عظيماً .

فقال له الفضل : مَه[1]، فقال : السلام عليك أيها الوزير ، فقال : مَهْ ، فقال : السلام عليك أيها الأمير ، فقال : قاربت فأذن له فدنا وأكل ، فلما فرغ من الأكل قال له الفضل : من أى العرب ؟ قال : من ربيعة ، فقال : أين تريد ؟ قال : إلى الفضل ، فقد شاع ذكره فى العرب وكَرَمُه ، فقصدته على الاسم والذكر بأبيات من الشعر ، فقال : ياأخا العرب قد مالحناك[2] ووجب نصحك علينا ، وأنا عارف بالفضل فأنشدنا فإن كان يصلح له وصلناك إليه ، وإن لم يكن أعطيناك نفقة توصلك إلى أهلك وأنت على جاهك ، فأنشد هذه الأبيات :

ولو قيل للمعروف : نادِ أخا العُلَا ... لنادى بأعلى الصوت يافضلُ يافضلُ
ولو أم طفل مَضّها جوعُ طفلها ... وغذّته باسْم الفضلِ لاستعصم[3] الطِّفْلُ

فقال الفضل : أحسنت إنهما لبيتان جيدان ، ولكن إذا قال لك الفضل هذان بيتان لقيتهما من شعر العرب ، وجئتنا لتخدعنا عن حاجتك ، قال : أقول له : يأمر بإحضار كتاب فيه شعر فيفتحه فأى وزن وقافية اشتهى عملتُ عليها بيتين ، فقال : ياغلمان أحضروا كتابًا فيه أشعار ، فحضر ففضه فخرجت قصيدة ابن الجهم التى يقول فيها :

*** عيون المها بين الرُّصافة والجسر ***

فقال الفضل : هذا وزن سهل وقافية سهلة ، فإن قال لك الفضل : أريد أن تعمل أربعة أبيات يكون فى كل بيت منها اسم الفضل فما تصنع ؟ فتفكر قليلاً وقال :

ولائمة لَامتك يافضلُ فى الندى ... فقلت لها : وهل يقدح اللومُ فى البحرِ ؟!
أرادت لتثنى الفضلَ عن عادةِ النَّدى ... ومن ذا الذى يَثْنِى السحابَ عَنِ القَطْرِ
مواقِعُ جُودِ الفَضْلِ فى كُلِّ بلدةٍ ... مواقع ماء المُزْنِ فى البلَدِ القَفْرِ
كأن وفودَ الفضل حين تحمَّلُوا ... إلى الفضل وافى عنده ليلة القدرِ

فقال : أحسنت ياأخا العرب ، أنا الفضل ، فنهض الأعرابى وقبل يده ،

---

(١) مَهْ : اسم فعل أمر بمعنى اسكت ، وكذلك صَهْ .

(٢) مَالحه : واكله ، ويقال : هو يحفظ حرمة المِلْح والمالحة . ومن قولهم : بينهما حرمة الملح والمالحة .

(٣) مَضّها : آلمها . واستعصم : اعتصم وامتنع به ولجأ .

وقال له الفضل : ما الذى أمّلْته منى ؟ فقال له : ألف درهم أستعين بها على حالى ، فقال : ياغلام ادفع له ألفًا وألفًا وألفًا ، ولم يزل يكررها حتى انقطع نَفَسُه ، فحصى ذلك فكان ستة عشر ألفًا وأخذها وانصرف .

فانظر ياأخى إلى هؤلاء السادة وما كانوا عليه من الشفقة على عباد الله تعالى ، وما وفقوا له من اصطناع المعروف فى زمانهم ، فأعمالهم منشورة إلى قيام الساعة ، ثم تفكر فى أهل زمانك هذا لا ترىٰ إلاَّ كما قال الشاعر :

قوم إذا استقريتهم فكأنما حاولت نَتْفَ الشعر من آنافهم[1]

وقول الآخر :

ذهب الذين يُعَاشُ فى أكنافهم وبقيت فى خلف كخَلَفِ الأجْرب[2]

[خطبة علىّ - كرم الله وجهه - فى اصطناع المعروف]

□ فضل الجنّى :

وقد رُوىَ عن الإمام علىّ بن أبى طالب - كرم الله وجهه - أنه كان كثيراً ما إذا خطب يوم الجمعة يقول : يأيها الناس عليكم بالمعروف واذكروا فعلَ الجِنّى ، قال ابن الأشتر لبعض أصحابه :

انطلقوا بنا إلى أمير المؤمنين حتى نسأله عن هذا « الجنى » ماهو فقد أكثر فيه القول ! .

فأتياه فدخلا عليه ، فقال : ما راعنى[3] بكما فى هذه الساعة ؟ فقالا : ياأميرَ المؤمنين ؛ سمعناك تقول : عليكم بالمعروف واذكروا فعلَ الجِنّى ! . قال : ما تدرون ما هو ؟ قالا : لا . قال : فذاك كان فيكم ، قالا : من ؟ قال : مالكُ بنُ حَرِيمٍ الهَمْدَانِىِ[4] خرج حاجًّا فى رهط من أصحابه حتى

---

(١) استقريتهم : طلبت القِرَىٰ منهم والطعام ويالها من صورة ساخرة تدل على مدى فزعهم من سؤالهم القِرىٰ ، وإلى أى مدى كان بخلهم بما فى أيديهم حتى اللقمة تقدم للضيف ! .

(٢) قاله لبيد .

(٣) راعه : أفزعه .

(٤) قال فى القاموس : مالك بن حَرِيم الهَمْدانى : جَدّ مسروق .

إذا كان فى بعض الطريق قال لهم : أسندوا[1] فقد قدرتم على الماء ، فأسندوا فرقدوا حتى طلع القمر من آخر الليل ، فانساب إليهم شُجَاعٌ من الجبل[2]؛ فطاف بالقوم ، فلما انتهى إلى الشيخ جرى الفتى بالعصا وخشى أن يسبقه إلى الشيخ فيلسعه فضربه ، فأخطأه ، ففزع ! .

فقال الشيخ : مَه[3]، فقال : الشجاعُ دخل تحتك ! .

قال : استجار بى فأجرتُه ! ، قال : فخرج الشجاع فرجع من حيث أتى ! .

وقال : ارقدوا فقد رقدتم على الماء ، فما استيقظوا إلاَّ بحرّ الشمس ، فقاموا فأخذ كل إنسان بخطام راحلته[4]يطلبون الماء فإذا هم على طَلَل ، فلما رأى ذلك الشجاع قال شعراً من كلام جِنِّىٍّ فى صفة ثعبان أيضًا :

يأيها الرَّكبُ لا ماء أمامكمو ... حتى تسوموا المطايا يومها الدأبا
ثم اعدلوا يمنة فالماء عن كَثَبٍ ... عين رواء وماء يُذْهِب اللَّغَبَا[5]
حتى إذا ما أصبتم منه ريّكمُ ... فاسقوا المطايا ومنه فاملئوا القِرَبا

قال : فأسندوا فإذا عين خرارة ، فشربوا وأسقوا إبلهم وصدروا .

فلما رجعوا كانوا بأدنى الجبل ، قالوا : ياحريم لو استعذبنا من ذلك الماء ، فأسندوا فلم يروا شيئاً ، فلما رأى ذلك الشجاع ناداهم من الجبل يقول شعراً من كلام الجنى أيضاً :

يا مالِ عَنِّى جزاك الله صالحة ... هذا وداع لكم منى وتسليمُ[6]
لا تزهدَن فى اصطناع العُرْف مع أحد ... إن الذى يحرم المعروفَ محرومُ
أنا الشجاع الذى أنجيتَ من زَهَقٍ ... شكرت ذلك إن الشكر مقسومُ
من يفعل الخيرَ لا يَعْدِمَ مَغَبّته[7] ... – ماعاش – والكفر بعد الغدر مذمومُ[8]

---

(١) أسندوا : استريحوا واستندوا إلى جبل ونحوه . (٢) شجاع : حَيّة .
(٣) مَهْ : اسم فعل أمر بمعنى كُفَّ عن هذا العمل !
(٤) الخِطام (بكسر الخاء) : الزمام والمِقْوَدِ والراحلة : الناقة التى يرتحل عليها .
(٥) اللغب : التعب والإعياء .
(٦) يامالِ : منادى مرخم أصله يامالك. والمراد به مالك بن حريم الهمدانى .
(٧) مغبته : عاقبته .
(٨) فى بعض المصادر «بعد الغب» وقد ذكر هذه القصة ابن أبى الدنيا فى الهواتف وفى سندها هشام بن محمد الكلبى متروك الحديث وأورد هذه القصة الشبلى (ص/١٤٨ - ١٤٩) والسيوطى =

□ عبيد بن الأبرص وصاحب له :

قال : وخرجَ عَبيد بن الأبرص فى بعض أموره ومعه صاحب له ، فإذا هما بشجاع يتقلب فى الرمضاء[1]، فقالوا : ياعَبيد دونَك الشجاعَ فاقتله[2]، قال : هو إلى ما تسقونه من الماء أحوج ، قالوا : دونك الشجاع فاقتله ، قال : أنا أكفيكموه ، فأخذوا دَلْوًا من ماء فصب له ، وشَرِبَ وَصبّ فَضْلَتَه على رأسه ومضى ، فلما مَضى فى سفره ضل به الطريق وهرب بكْره[3]، فإذا هو بهاتف هتف به وهو يقول :

ياصاحبَ البَكْرِ المضل مذهبه ... وليس معه ذو رشاد يَصْحَبُه
دونَك[4] هذا الركبَ مِنّا فارْكَبْه ... وَبكرَك الدارجَ أيضاً فاصْحَبْه
حتى إذا الليل تَوَلّى مغْرِبُه ... وسَطَعَ الصُّبحُ ولاحَ كَوْكَبُه
فحُطّ عَنْهُ رَحْلَه وسَيِّبْهْ

قال : فالتفت فإذا هو بَبَكْر ، فشد عليه رَحْله ورَكِبَه ، فلما قرب الصبح عرف المكان فقال :

ياصاحبَ البَكْرِ قد أُنْجيت من ضَرَرٍ ... ومن فيافٍ تضل المدلج الهادى[5]
أَلا أتيتَ لنا بالصُّبح نَعْرِفُه ... مَنِ الذى جاد بالنّعْماء فى الوادى ؟!
فارجع سليمًا فقد بَلغْتَ مأمننا ... بُوركتَ من ذى سَنامٍ رائحٍ غادى

فأجابه يقول هذه الأبيات :

أَنَا الشجاعُ الذى أبصرتَه بالوادى ... ومنزلى نزه من موردٍ صادى
فجُدْت بالماء لما ضَنّ شاربُه ... رويت هامتى ولم تبخل بإنجاد
أنا الشجاع الذى أَرْوَيْتَنى عَطشاً ... يوم الهجير على الرّمضَاءِ بالوادى
الخيرُ يَبْقَى وإنْ طَالَ الزمانُ بِه ... والشر أخبث ما أوعيت من زاد

= (١٣٥) نقلا عن ابن أبى الدنيا فى كتابه الهواتف (مكتبة القرآن) .

(١) الرمضاء : الرمل الملتهب بفعل حرارة الشمس ، ويقال هو كالمستجير من الرمضاء بالنار ! .

(٢) دون ظرف منصوب بمعنى أمامك وتوصل بكاف الخطاب . (٣) البَكْر : الفَتِىُّ من الإبل .

(٤) كما تكون «دون» ظرفا تكون اسم فعل بمعنى «خُذْ» وتوصل بكاف الخطاب .

(٥) الفيافى : الصحارَى . والمدلج : السائر فى الظلمة .